

معالم التدوين الجغرافي لحواضر المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

Landmarks of geographical writing in middle Maghreb towns during the middle era

د. نذير برزاق¹

قسم التاريخ، جامعة قسنطينة 2، 2.dz.nadir.berzag@univ-constantine2.dz

تاريخ الإرسال: 2024/09/20 ؛ تاريخ القبول: 2024/10/22 ؛ تاريخ النشر: 2024/12/01

الملخص باللغة العربية:

تعدّ المصادر الجغرافية المشرقية والمغربية من أهم المدونات التي وثّقت ضمن ثناياها معالم تاريخ وحضارة مختلف المدن المعروفة آنذاك في حيز المغرب الأوسط (الجزائر) من نواحي عدّة، حيث تمكن الجغرافيون رغم صعوبة المأمورية حينها من رصد وذكر العديد من المعطيات التاريخية بمختلف نواحيها؛ أين استطاعوا توثيق مختلف الأنشطة الاقتصادية والأحوال الاجتماعية والأوضاع السياسية، مع بعض الإشارات الضئيلة حول النشاط الثقافي، بالإضافة إلى رصد الظروف المناخية والإمكانات الطبيعية وهي سمة المدونة الجغرافية، إذ كانت منهجية التمييز عند الجغرافيين حاضرة في التفريق والتقسيم للمجال بين المدينة والريف أو الحاضرة والبادية نظرا لاختلاف الخصائص بينهما.

فيا ترى فيم تكمن قيمة المصادر الجغرافية في رسم المشهد الحضاري للمجالات (الحواضر) وإمداد المؤرخ بالمعطيات التاريخية لكل مجال؟. إذ نهدف من خلال هذه الورقة البحثية إلى معرفة تاريخ نشأة الحواضر وتطورها التاريخي واكتشاف ملامح ومعالم بعض المدن الجزائرية كمنهج كما نقلتها مشاهدات وأخبار الجغرافيين وهذا خلال أمد طويل ممتد من ق3هـ/9م إلى غاية ق10هـ/16م. ومما خلصنا إليه أنه تباينت منهجية الجغرافيين بين الوصف الإجمالي والوصف التفصيلي، وأبانت عن ثراء كبير في مضمونها،

د. نذير برزاق

قيمة المصادر الجغرافية في توثيق المادة التاريخية حول المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

فالمدونة الجغرافية ذات حمولة مثقلة من المعطيات تُمكن الباحث من تشكيل صورة عن بعض الأحداث بمختلف درجات أهميتها والتطورات التاريخية الحادثة في كل مجال.
الكلمات المفتاحية:

كتب الجغرافيا؛ المغرب الأوسط؛ العصر الوسيط؛ الحاضرة (المدينة) والبادية (الريف)؛ الآليات المنهجية.

Abstract: Geographers recorded many historical facts about economic, social and others. They also mentioned climate conditions and nature potentialities, these were the core concern of geographic books. The geographer's methodology of distinction was present to make difference between rural and urban side since differences existed between them.

So, what was the value of geographic resources in displaying the towns' civilisational aspect in economic, social and others ? Our aim in this article is to know the aspects of some Algerian towns as examples during the 3rd hijiri century (9th century BC) and the 10th hijiri century (16th century BC). We came to the conclusion that geographer's methodology differed in general and detailed description. The economic situation was dominant comparing to other fields, however, these historical information let searchers make an image of some events and historical evolution.

Keywords: Geography books; Central Maghreb; The middle era; Town and country; Systematic mechanisms.

مقدمة:

تعدّ المصادر الجغرافية من أهم المدونات التي تقدّم إضافات للدرس التاريخي وحتى الأثري، وتساعد الباحثين على معرفة تاريخ المجالات وذلك بتتبع مراحل نشوء الحواضر بدءاً من تأسيسها إلى سقوطها وحالتها بين المرحلتين، حيث تناولت بإسهاب موقعها الجغرافي الذي يساعد على توفر كل أسباب الحياة والانتعاش وصلاحياتها للعمران، وهذا ما نعثر عليه في مختلف المدونات الجغرافية المشرقية والمغربية.

ونحاول من خلال هذه الورقة البحثية معرفة أهم الخصائص التي تميزت بها كتب الجغرافيا والبلدان التي ضمت ضمن ثناياها العديد من الأحوال الطبيعية والمظاهر البيئية والأخبار التاريخية؛ على الرغم من أن غالب الأمر عليها ومما هو معروف عنها اهتمامها برصد المظاهر الجغرافية، الأمر الذي جعلها تختلف عن مضمون صنف كتب الرحلة المتقاربة معها في إيراد بعض المشاهدات عن الأوصاف الجغرافية المتعلقة بالمناخ والتضاريس والحدود والسكنة وغيرها من مظاهر الحياة بكل تفاصيلها، وبالتنقيب في لجج كتب البلدان يتضح للباحث عن مكوناتها التي تحوي مضامين مهمة تساعده في رسم الوضع العام آنذاك - خلال فترة الجغرافي - وما قبله وبالأخص أثناء تتبع المادة الجغرافية بعد تزمينها لمعرفة الثابت والمتحول الطارئ عبر أمد طويل على مجال المعاينة والمشاهدة أو حتى النقل من الجغرافيين السابقين.

فما خصائص التدوين الجغرافي؟، وكيف هي منهجية تقديم المعطيات في متنها؟ وفيم تكمن أهميتها لمعرفة جزئيات الأحوال الطبيعية والمعيشية بها يفيد الباحث في معرفة الوضع التاريخي لمدين المغرب الأوسط؟

- قراءة في المدونة الجغرافية:

ثمة العديد من المصادر التي تناولت جغرافية حواضر المغرب الأوسط من ناحية موقعها وتأسيسها وطبيعتها وعمرانها ومنتوجاتها وسكانتها وغيرها، لكن تباينت حجم المعطيات التي يسديها كل جغرافي مقارنة بآخر وهذا حسب وضع الحاضرة في زمان التدوين للبيانات، وكذا حجم الأخبار والمعاينة الميدانية للجغرافي، إلا أنه على العموم تفيدنا بمعطيات مهمة عن هذه المجالات، ومن المصادر المهمة التي اعتمدناها:

كتاب ابن حوقل (ت380هـ/990م) "صورة الأرض"؛ أين كانت رحلته الجامعة بين التجارة وحب الاستكشاف نحو بلاد المغرب الإسلامي الأثر البارز لمعرفة جغرافيتها وسكانتها وجمع المعلومات المتعلقة بها، فهو مصدر مهم باعتباره شاهد عيان لهذه البلاد، كما استعنا في دراستنا هذه بكتاب "المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)" لصاحبه أبو عبيد البكري (ت487هـ/1094م)؛ الذي تنوعت مادته بين الحقيقة في وصف المناطق والشعوب والحواضر وبعض الأساطير والخرافات، وتبقى مادته ثرية عن الإمكانات الاقتصادية والشعوب التي زارها.

ومما نقبنا ضمن لججه مصنف الجغرافي محمد بن عبد الله الشريف الإدريسي، (ت560هـ/1164م) "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي اعتمد - بالإضافة إلى ملاحظاته الميدانية - على أمهات المصادر المؤلفة قبله، فاستعرضه لأحوال البلاد من ناحية خصائصها الطبيعية ومختلف الصناعات وأحوال المجتمعات ليدفع بالباحثين إلى الوقوف معه مليًا، ويشبهه في القيمة كتاب "الاستبصار وعجائب الأمصار" لمؤلف مجهول [ابن عبد ربه الحفيد] (ت602هـ/1205م)؛ الذي استقى معلوماته من سابقه، بالإضافة إلى مشاهداته كيف لا وهو ابن المنطقة.

كما يعدّ كتاب ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م) "معجم البلدان" معجما جغرافيا مهماً إذ يفيدنا بمعلومات كافية عن بعض حواضر المغرب الأوسط؛ مبيّنا رقعته الجغرافية وحصونها ومؤسساتها وأصول وأخبار ساكنتها، بالإضافة إلى مصنف "الروض المعطار في خبر الأقطار" لصاحبه محمد بن عبد المنعم الحميري (ت727هـ/1326م) الذي كانت مصادره المعتمدة في تدوين الملامح الجغرافية لمجال المغرب الأوسط هي مغربية منتهجا طريقة تحديد الموقع ثم المميزات الطبيعية واستعراض المظاهر الاقتصادية والأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية.

ولعل أنفس مصدر جغرافي يمدّ الباحثين بملاحظات جغرافية وتاريخية هو مصنف "وصف إفريقيا" الحسن بن محمد الوزان الفاسي (حي 957هـ/1550م) الذي تناول مدن المغرب الأوسط وأوضاعها الحضارية مركزا على الجانب الاقتصادي ثم بدرجة قليلة الاجتماعي والسياسي، وبدرجة أقل الشق الثقافي.

ومجمل هذه المصادر تميزت بخصائص، يحتاج الباحث في تاريخ المغرب الأوسط إلى استيعابها أثناء التنقيب في لججها، ومما يمكن استحضاره:

1- تقديم الموقع الجغرافي بإبراز حدود المجال:

يعدّ تحديد إحداثيات المجال ورسم حدوده من صلب اهتمامات الجغرافيين من أجل تثبيت خريطة المكان في زمان الجغرافي خصوصا، نظرا للتغيرات الطارئة على الحدود التي يخضع تحديدها بناء على الوضع السياسي الذي يفرض هيمنته على مجالات وإدخالها تحت حكمه وسيطرته، لهذا لطالما شاهدنا تمعدا وتقلصا للمجالات عبر مختلف

الحقب التاريخية، ويبقى تحديدها يخضع للعمومية بدل التدقيق في بعض الأحيان والنسبية.

لذا نجد في ثنايا رصد الجغرافيين العديد من المصطلحات الدالة على العناية برسم الحدود على غرار عبارات: يحدها، وفي شرقها أو غربها ويليها، كما نعثر حرصهم على ضبط حيّزها الجغرافي الظاهر من خلال كلمات: تقع، وهي على بعد وتأسست على، بالإضافة إلى توثيق بيانات ومعطيات الموقع الفلكي للمجال وهذا بتحديد دوائر العرض وخطوط الطول له.

ومن النماذج التي نقلها بهذا الصدد تحديد الجغرافي ابن سعيد المغربي (ت 610هـ/1286) جغرافية حاضرة وارجلان التي تأتي في خط "الطول عشرون درجة ونصف والعرض أربع وعشرون درجة ونصف وعشر" (ابن سعيد، 2013: 95)، كما وطّن الزهري (ق 6هـ/12م) مجال برشك الواقعة حسبه في غربي الصفع في البر (الزهري، د.ت: 66).

بينما رصد الجغرافي ياقوت الحموي (ت 626هـ/1228م) حيّز مدينة أشير الموجودة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي المقابل لبجاية في البر (ياقوت الحموي، 1977: 202/1)، وأضاف إليها الحميري (ت 900هـ/1495م) أنها بلدة أو حصن بينها وبين المسيلة مرحلة، وهي قائمة بين جبال شامخة محيطة به (الحميري، 1984: 60)، ونفس نمط السرد الجغرافي عند الوزان (ت 957هـ/1550م) عن مليانة التي ذكر مقياس بعدها عن شرشال في جهة البحر وهي نحو أربعين ميلا (الحسن الوزان، 1983: 34/2).

وعن موقع قسنطينة حسب الوزان (ت 957هـ/1550م) فإن موضعها في أعلى قمة الجبل واعتبر أن الصعود إليها لا يمكن إلا من طريقين صغيرين ضيقين أحدهما إلى جهة الشرق والآخر إلى جهة الغرب (الحسن الوزان، 1983: 56/2).

فمختلف خرائط المجالات المنتقاة عند هذه الثلة من الجغرافيين تبين حرصهم على تحديد الإحداثيات ومحيط المجال من مختلف الاتجاهات والأبعاد، وحجم المسافات بين الحاضرة المعنية بالحواضر المهمة القريبة منها، دون إغفال موقع التشييد للمدينة الذي يعطي انطبعا على موطن الإنسان.

2- عرض خصائص المناخ تمهيدا لإبراز تأثيره على عائدات المجال:

انتبه ونَبّه ابن خلدون (ت808هـ/1405م) إلى العلاقة بين المناخ والطباع ودوره في استقرار الإنسان أو تحركه، ومدى تأثير الإنسان إيجابا أو سلبا بطبيعة مناخ المجال محل النزول للمعاش، حيث عنون فصلا في كتابه المقدمة تحت عنوان: "في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم" قال فيه: "وجميع ما يتكوّن في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا (...) وكافة الأحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك، فكانت فيهم النبوءات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة" (ابن خلدون، 2008: 79، 81).

ومما نقله عن هذه الفكرة ماورد عند مؤلف مجهول [ابن عبد ربه الحفيد (ت602هـ/1205م)] عن مرسى الخرز الثرية بالمرجان الموجود في قعر البحر، مؤكدا على دور عامل المناخ في حفظه أو فسادده فهو في أصله رطب لين فإذا مسّه الهواء اشتدّ (مجهول، 1986: 126)، وهذا كلام عن العلاقة بين المنتج وشروط الحفظ من الفساد، كما برّر الإدريسي (ت560هـ/1164م) دواعي النشاط الاقتصادي في شقها الصناعي لحاضرة بجاية نظرا لطبيعة مقدّراتها الطبيعية لإنشاء دار لصناعة الأساطيل والمراكب والسفن والحرايبي كان بفضل الإمكانات الطبيعية التي تحوزها وبدرجة أكبر وجود الخشب في أوديتها وكذا جبالها (الإدريسي، 2010: 260).

ووصف في موضع آخر الانعكاس الإيجابي لهواء قسنطينة على معاش سكانها مؤكدا على بقاء الحنطة بها لفترة نظرا لبرودتها واعتدال هوائها (الإدريسي، 2010: 266)، وهي الملاحظة نفسها لأبي الفداء (ت732هـ/1331م) الذي اعتبر أن الحنطة لا تقصد وتقيم في مطاميرها لمدة طويلة جدا قدرها بمائة سنة (أبو الفداء، د.ت: 139)، وورد عند الوزان (حي سنة 957هـ/1550م) أن جل سكان مدينة دلس يمتهنون مهنة الصباغة مرجعا السبب إلى وجود عدد كبير من العيون والجداول بها مما يسهل عليهم امتنانها والبراعة فيها (الحسن الوزان، 1983: 42/2).

وكل هذه الشواهد تظهر دور الطبيعة ومكوناتها وخصائصها في إمداد الإنسان بمهن خاصة مع مساهمتها في حفظ معاشه، وتساهم هذه المادة الجغرافية في معرفة توزيع الحرف والصناعات والمهن في المجالات.

3- وصف الأمكنة والمناظر الطبيعية:

حظي حال جغرافية المجالات من ناحية تضاريسها كالجبال والوديان والظواهر الطبيعية كالثلوج والمنايع المائية بنصيب من معانيات الجغرافيين، نظرا لقيمة هذه العطايا الإلهية من تمكين البشر في عمران الأرض، أين اهتمدى الإنسان في تخطيط مدن إقامته إلى مراعاة جوانب الأهلية المعاشية وحصانتها من الغزو الخارجي ضمانا لأمن الساكنة.

فتحدّث ابن حوقل (ت380هـ/990م) عن مكان تنس واصفا إياها بأنها مدينة يحيطها سور ولها أبواب عدة وبعضها على جبل قد أحاط به السور وبعضها في سهل وهي من البحر على نحو ميلين على واد كثير الماء الذي يشربون منه (ابن حوقل، 1872: 52)، وجاء عن بونة في وصف البكري (ت487هـ/1094م) بأنها تحتوي على بئر هي مشرب أكثر أهلها تسمى بئر النثرة موجودة على ضفة البحر مفصلا في وصفها أين ذكر بأنها منقورة في حجر صلب، كما ذكر الجبل المعروف في بونة إلى يومنا هذا والمطل عليها وهو جبل زغوغ (الإيدوغ) الذي يكثر فيه الثلج والبرد نظرا لعلوه (البكري، د.ت: 55)، ووصفه الإدريسي (ت560هـ/1164م) بأنه يقع على الذروة سامي القمة (الإدريسي، 2010: 291).

كما نعثر على هذا وصف دقيق بخصوص حاضرة تنس عند القزويني (ت682هـ/1283م) بأنها مدينة حصينة، تحوز على قهندر (قلعة عظيمة) صعب المرتقى، ينفرد بها العمال لحصانتها، خوفا من الرعية، ثم ذكر أن "هواؤها ويّ وماؤها رديّ، وماؤها من وادٍ يدور حول المدينة، وإليه مذهب مياه حشوشهم وشربهم منه، قال بعض من دخلها وفارقها (القزويني، د.ت: 173):

الْبَرَاغِيثُ كُلُّهُمْ أَكْلُونِي
لَوْ خَلَعْتُ الثِّيَابَ لَمْ تَعْرِفُونِي
وَأَرَاهُمْ عَلَى الدُّرَجِ يَسْقُونِي

لَا سَقَى اللَّهُ بِلَدَةٍ كُنْتُ فِيهَا
قَرَصُونِي حَتَّى تَنْمَرَ جِلْدِي
إِنْ صَعَدْتُ السُّطُوحَ لَمْ يَتْرُكُونِي

كما شَخَّصَ البكري (ت 487هـ/1094م) حال البيئة التيهريية التي تتميز بالبرودة الشديدة والكثيرة الغيوم والثلج، أين نقل لنا هذه الأبيات لبكر بن حماد أبو عبد الرحمان:

"مَا أَحْشَنَ الْبَرْدَ وَرَيْعَانَهُ وَأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِتَاهَرَتْ
تَبْدُو مِنَ الْغَيْمِ إِذَا مَا بَدَتْ كَأَنَّهَا تَنْشُرُ مِنْ نَحْتِ
فَنَحْنُ فِي بَحْرِ بِلَالُجَةٍ تَجْرِي بِنَا الرِّيحُ عَلَى سَمْتِ
نَفْرَحُ بِالشَّمْسِ إِذَا مَا بَدَتْ كَفَرَحَةِ الذِّمِّيِّ بِالسَّبْتِ" (البكري، د.ت: 67).

وبالتنقيب في لجج أوصاف الحميري (ت 727هـ/1326م) عن حواضر عدّة فإنه وقف مدققا في رصده، فاعتبر أن مدينة قسنطينة التي تعتبر من إحدى عجائب العالم تتميز بالبرودة الشديدة والثلوج كثيرة، والرياح العاتية نظرا لعلوها وارتفاعها" (الحميري، 1984: 480)، أما عن حاضرة بسكرة فذكر بأنه يشق غابيتها "نهر كبير ينحدر من جبل أوراس يسقي بساتينها ونخيلها وهو نحو ستة أميال في غابة متصلة بالمدينة" (الحميري، 1984: 114).

وهذا الوصف بقدر ما هو جمالي وطبيعي لا تدخل للإنسان في صنعه فهو يساعد الإنسان في الاستقرار واستقطاب الرحالة مما يخلق جوا من التعايش السكاني بين مختلف الأجناس الوافدة والعابرة عبر هذا المجال.

4- عرض تاريخ نشأة المجال:

المنطلقات التاريخية للمجالات وتأسيسها نالت نصيبها من مادة الجغرافيين على الرغم من أن معظم المجالات كانت قد تأسست بقرون طويلة على زمن الجغرافي إلا أنه وثّق بعضا من معطيات الهجرات والتعمير والنمو السكاني.

ومن الأمثلة التي نسوقها ماورد عند البكري (ت 487هـ/1094م) حول بناء مدينة تنس التي أسسها بعض بحارة الأندلس سنة 262هـ/875م الذين كانوا يقصدون مرساها على ساحل البحر في إطار تحركاتهم وتجارتهم البحرية، معرّجا على فكرة التأسيس التي انطلقت من مطلب بعض بربر ذلك القطر الذين رغبوا في الانتقال إلى قلعة تنس "وسألوهم أن يتخذوها سوقا لهم ويجعلوها سكتى، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة فأجابوهم إلى ذلك وانتقلوا إلى القلعة وخيموا بها" بل انتقل أيضا إليهم بعض أهل الأندلس مساهمين بذلك في عمارتها (البكري، د.ت: 61-62).

وعن تاريخ حاضرة أشير يحفظ لنا البكري (ت 487هـ/1094م) أبياتا أنشدها عبد الملك بن عيشون عن مؤسسها، قائلا من خلالها:

"يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ غَرِبِنَا وَعَنْ مَحَلِّ الْكُفْرِ أَشِير
عَنْ دَارِ فُسْطَقِ ظَالِمِ أَهْلِهَا قَدْ شَيْدَتْ لِلْكُفْرِ وَالزُّورِ
أَسَسَهَا الْمَلْعُونُ زِيرِيهَا فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى زِيرِي" (البكري، د.ت: 60)

وعن دواعي بناء حاضرة بجاية نظرا للظروف الطارئة على بلاد المغرب الإسلامي بعد الغزو الهلالي يخبرنا صاحب "الاستبصار" (ق 6هـ/12م) بأنها مدينة محدثة من بناء ملوك صنهاجة، أين تناول سبب بنائها والذي أرجعه إلى تداعيات نزول العرب بإفريقية وإفسادهم لأول حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي وهي القيروان التي بناها الفاتح عقبة بن نافع الفهري، ثم ذكر قصة هروب المنصور بن حماد من القيروان والتجاءه إلى "موضع يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب فدل على موضع بجاية وكان مرسى" (مجهول، 1986: 128-129).

وعن حاضرة مليانة يخبرنا بتاريخ تأسيسها ثم تجديدها الجغرافي الحموي (ت 626هـ/1228م) قائلا: "هي مدينة رومية قديمة فيها آبار وأنهار تطحن عليها الرحي جددها زيري بن مناد واسكنها بلكين" (ياقوت الحموي، 1977: 196/5)، وعن ساكنة مرسى الدجاج فإن قاطنيها في زمن الحميري (ت 727هـ/1326م) هم: "الأندلسيون وقبائل من كتامة" (الحميري، 1984: 539).

وبالتنقيب في ليج مصنف الجغرافي الحسن الوزان (حي سنة 957هـ/1550م) عن تأريخه لنشأة مختلف حواضر المغرب الأوسط فإنه يمدنا بمعطيات تاريخية ممتدة من زمان تأسيس المدينة إلى غاية ساكنتها في زمانه، ومما انتقينا من مدن في هذا الصدد: حاضرة وارجلان بالجنوب، وبونة بالغرب، وتلمسان بالشرق، وسطيف بالوسط، وشرشال بالشمال.

إذ ورد عنده أن مدينة وارجلان تمتد في أعماق التاريخ فهي أزيد من بناء النوميديين (الحسن الوزان، 1983: 136/2 - 137)؛ مكتفيا برصد نشأتها الأولى وتوطينها، أما عن بونة (عنابة) التي تسمى قديما أوربونة فهي مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو 120 ميلا غربا، حيث كانت خاضعة للقوط (الوندال)، ثم "فتحت زمن الخليفة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين بعد محمد صلى الله عليه

وسلم فخرّبها وتركها خالية بعد أن نهبها وأحرقها" (انظر التعليق رقم 1). ويذكر لنا في نفس سياق عرضه أنه أعيد بناء "مدينة أخرى تبعد عن الأولى بنحو ميلين، واستعملت في بنائها أحجار المدينة القديمة، وهي مشهورة عند الكثير من الناس باسم بلد العناب" (الحسن الوزان، 1983: 61/2 - 62).

وفي حديثه عن تلمسان أخبرنا عن كبر حجمها لكن قبل ذلك كانت "مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول، وخصوصا بعد طرد جنود المنصور بن أبي عامر من المنطقة، وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتّى أصبحت فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك أبي تاشفين" (الحسن الوزان، 1983: 17/2).

وعن التحولات التاريخية لمدينة سطيف التي شاهدها الوزان أثناء مروره عليها قال بأن الرومان هم من بنوها "وكانت في العصور الغابرة متحضرة جدا كثيرة السكان" لكن هذا التحضر حسبه - لم يمتد عبر تاريخها أين "انحطت منذ الفتح الإسلامي وخصوصا عند مجيء الأعراب الذين حطموا جزءا من أسوارها، ولم يبق منها سوى مائة دار مسكونة" (الحسن الوزان، 1983: 52/2 - 53).

ومن مدن الشمال مدينة شرشال التي عاشت مراحل متباينة بين العمران والهجران تبعا للأوضاع السياسية التي كانت بالمنطقة والتي لطالما كانت محل أطماع ونزاع بين القوى السياسية، حيث عدّت في حجمها بأنها مدينة كبيرة جدًا، وفي امتدادها التاريخي فهي أزيلية من تشييد الرومان ثم تعرضت إلى تخريب شديد على يد القوط (الوندال) وذلك "طوال مدة تقرب من خمسمائة عام، ثم هجرت أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين، فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة" (الحسن الوزان، 1983: 34/2).

فهذه البيانات تظهر منطلقات الحواضر ومجالات التأسيس والتوسع، ثم البقاء أو الاندثار على حسب التحصينات والتهديدات، والمعطيات النموذجية السالفة الذكر تفتح للباحثين باب تتبع الظروف التاريخية لتأسيس المجالات.

5- رصد أهم الإمكانات التي يحوزها المجال:

حظّ بعض المجالات يختلف عن بعضها، فنلاحظ استئثار بعض المدين لمنتجات ذا جودة وقيمة ونوعية يقل نظيرها في مكان آخر، وهذا بسبب تظافر عوامل طبيعية ساهمت في هذا الامتياز الممنوح للحواضر، أين نعثر على إشارات في هذا الصدد ضمن المدة الجغرافية.

إذ يحدثنا ابن حوقل (ت 380هـ/990م) عن قيمة مرجان مرسى الخرز (القاله) الذي لا يرى له نظيرا في الجودة في شيء من البحار، واستثناها بوجوده فيها دون غيرها (ابن حوقل، 1992: 76)، وأضاف عن منتجات حاضرة تنس بأنها تحوي على فواكه حسنة معددا بعضا منها على غرار "السفرجل المعنق ما لا أزال أحكيه لحسنه وكثرته" (ابن حوقل، 1872: 52)، ونفس التشخيص عند البكري (ت 487هـ/1094م) حول مدينة مستغانم التي "يبدّر في أراضيها القطن فيجود" (البكري، د.ت: 69).

وحتى في وصف الجغرافيين للمنتجات الغنية فإن تركيزهم يصب على النوعية والكمية معا فالإدرسي يصف الخصائص الطبيعية والاستثمار البشري لها في حصن سطيف فيقول: "كثير المياه والشجر والتمر بضروب من الفواكه ومنها يحمل الجوز لكثرتة بها إلى سائر الأقطار وهو بالغ الطيب حسن وتباع بها" (الإدرسي، 2010: 269).

وعن جودة تمر بسكرة يشرحه صاحب الاستبصار بأن "أكثر تمرها الجنس المعروف بالكسبا وهو المعروف ببلاد الشرق وبمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وغيرها بالسماهي، وببسكرة أيضا جنس من التمر يعرف باللياري وهو أبيض وكان [عبيد الله الشيعي] صاحب القيروان يأمر عماله بالمنع من بيعه ويبيعت ما هناك منه إليه لطيبه وحسنه" (مجهول، 1986: 128 - 173).

وعن المنسوجات الحمادية والإبداع فيها وأثمانها الدالة على قيمتها يحدثنا الحميري (ت 727هـ/1326م) بأن منتجاتها ليس "لها مثل في الجودة والرقّة إلا الوجدية التي تصنع بوجدة، ويساوي الكساء الذي يصنع بقلعة حماد ثلاثين دينارا أو أزيد" (الحميري، 1984: 470).

وبخصوص الثروة السمكية لمدينة دلس المعروف أهلها بمهنة الصيد يُخبرنا الوزان (حي سنة 957هـ/1550م) بأنهم "يحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تشتري وإنما تهدي لمن يرغب فيه" (الحسن الوزان، 1983: 42/2).

ومعظم ما تم رصده لكل حاضرة يدلّ على اجتهادات الإنسان في استغلال الثروات لصالحه وخصائص المنتوجات لكل حاضرة، والتي ما زالت بعضها من خصائص بعض الحواضر إلى اليوم.

6- تقديم صورة عن عمران المكان:

مما نعتز عليه في المدونة الجغرافية رصد المؤسسات والهيكل القائمة في مختلف مدن المغرب الأوسط، وهي مختلفة الأدوار؛ بين المستغل للأنشطة الاقتصادية كالمراسي والأنشطة العسكرية كالحصون والأنشطة السياسية كالقصور، والأنشطة الاجتماعية والدينية والثقافية كالأسواق والمساجد وغيرها، بالإضافة إلى رصدها لعدد الدور والبيوتات القائمة وهو ما يسمح بمعرفة حجم المدينة وأهليتها للمعاش ونسبة سكانها.

فعن مراسي المدن الساحلية عدّد ابن حوقل (ت380هـ/990م) تسلسلها من الشرق إلى الغرب فذكر أن بين مدينة بونة وبين جزائر بني مزغناي مراس عدّة ففي "جيجل مرسى ومنه إلى بجاية مرسى ومنه إلى مرسى بني جناد ومنه إلى مرسى الدجاج وهي مدينة عليها سور منيع على نحر البحر وفي شفيره، وليس لها مرسى مأمون" (ابن حوقل، 1992: 77).

وإذا انتقلنا إلى عمران المدن الداخلية فيصف لنا صاحب "الاستبصار" عمران حاضرتين جمع بينهما تاريخ مشترك وهما أشير والقلعة، فذكر قَدَم مدينة أشير التي تضم أثارا عجيبة، أين تكفل بنو زيري بتسويرها وتحصينها وتعميرها "فليس في تلك الأقطار أحسن منها (...). وبالقرب من المدينة بنيان عظيم يعرف بمحراب سليمان لم يرى بنيان أعظم منه ولا أحكم، فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصد عنه الوصف" (مجهول، 1986: 170).

وعن جمال تخطيط قلعة بني حماد فيذكر أنها تحتوي على "مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد، وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عن الوصف، وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة" (مجهول، 1986: 168).

ومما بيّنه ياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1228م) مقارنة بسابقه عنها هو العلاقة بين مقصد البناء ومدى مراعاة الذوق، منبّها على خلو هذه القلعة من منظر جمالي ملفت وحسن، مُرجعا السبب إلى مقصد حماد الذي اختطها لغرض التحصن والامتناع لا غير. (ياقوت الحموي، 1977: 4/390).

ونظرا لحاجة المجتمع إلى إقامة مختلف المؤسسات التي تؤدي مختلف الوظائف وتضمن سيرورة مصالح الناس، فلطالما اشترك المجتمع من خلال أوقافه والسلطة السياسية بتمويلاتها في إنشاء مختلف الهياكل، ومما نستحضره ما عند الجغرافي البكري (ت 487هـ/ 1094م) عن عمران عدّة مدن، فتاهرت تحتوي على أسواق عامرة وحمامات كثيرة (البكري، د.ت: 68)، أما عن حاضرة تلمسان فذكر أن لها أسواقا ومساجد ومسجد جامع وأنهارا عليها الطواحين (البكري، د.ت: 76)، وتحوز شرشال على ميناء ارتدم، "ورباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير" (البكري، د.ت: 82).

ولم يكتف الحسن الوزان (حي سنة 957هـ/ 1550م) في حديثه عن العمران بحدّ المؤسسات والهياكل بل سلّط الضوء على مسألة الذوق والجمال العمراني الذي يعطي الانطباع الحسن عن عناية الساكنة والسلطة السياسية بهذا الشق الذي له رمزية حول رعايتهم لمجال استقرارهم.

فكانت مثلا دُور مازونة "قبيحة فقيرة وفيها جامع وبعض مساجد" (الحسن الوزان، 1983: 36/2)، وعن حاضرة ورقلة التي دار عليها "سور من الآجر النيء ودور جميلة" (الحسن الوزان، 1983: 136/2 - 137)، وبخصوص حاضرة بجاية فقد أسهب في عدّ عمرانها ووضعها فـ "دورها كلها جميلة، وفيها جوامع كافية، ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة إلى زوايا المتصوفة وحمامات وفنادق ومارستانات، وكلها صروح مشيدة حسنة البناء، وأسواقها كذلك جميلة منسقة أحسن تنسيق إلا أن المدينة كلها عقبات، بحيث أن الماشي لا يستطيع أن يخطو خطوات دون أن يصعد أو ينزل" (الحسن الوزان، 1983: 50/2).

ومما يمكن دعمه من مادة عمرانية أيضا في هذه الفكرة ما ورد أيضا عنده حول رونق عمران قسنطينة التي تتصف بكبر وجمال أبوابها المصفحة تصفيحا جيدا بالحديد، وأضاف عن شساعتها مما يسمح لها بضم ثمانية آلاف كانون، "وهي متحضرة جداً ومليئة

بالدور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجوامع الكبير والمدريستين والزوايا الثلاث أو الأربع، وأسواق المدينة عديدة حسنة التنسيق بحيث أن جميع الحرف فيها مفصول بعضها عن بعض" (الحسن الوزان، 1983: 55/2 - 60).

وعن حاضرة الجزائر فمشهدا العام هي "مدينة كبيرة تضم أسوار رائعة ومتينة جدا، مبنية بالحجر الضخم فيها دور جميلة وأسواق منسقة لكل حرفة مكانها الخاص وبها عدد كثير من الفنادق والحمامات ويشاهد من جملة بناءاتها جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر" (الحسن الوزان، 1983: 37/2 - 39).

ومما سبق تتضح قيمة المعطيات العمرانية المرصودة من قبل الجغرافيين، ومختلف المؤسسات العمرانية الموجودة كالقصور في دورها السياسي، والأسواق والحمامات وغيرها في شق الحياة الاجتماعية وأماكن عمومية، بالإضافة إلى المؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والزوايا، مما يدل على تكامل عمران المدن ودور السلط السياسية في توفير كل متطلبات الحاضرة.

7- تتبع حركة التبادل التجاري (التصدير والاستيراد):

مما ركز عليه بعض الجغرافيين في تدوينهم الحديث عن الحركة الاقتصادية التي عُرفت بها بعض الحواضر، أين انخرطت في سلك المبادلات التجارية ليس على المستوى المحلي القريب فقط بل كانت مركزا للتجارة الدولية العابرة للحدود، فبعضها نظرا لمعاناتها من قلة بعض منتوجاتها بسبب مناخها وطبيعة أرضها غير المنتجة لبعض الأصناف، وحواضر أخرى تركزت على خط تجارة القوافل مما يمكنها من الاستثمار في المبادلات.

ففي إطار المنافسات التجارية رصد لنا ابن حوقل (ت380هـ/990م) حال مدينة بونة المعروفة بالأسعار المناسبة، الأمر الذي يجعل سلعا محل استثمار اقتصادي مع الأقطار المتاخمة لها، فيها "من رخص الأسعار أيضا في الفواكه والمأكول والمطاعم والقمح والشعير والألبان والمواشي ما يفرق غيرهم ممن يجاورهم، وبها من الأشجار والثمر والتين خاصة العظيم الجسيم ما يحمل منه إلى البلاد النائية عنه" (ابن حوقل، 1992: 77).

وبتفقد مصنف الإدريسي (ت560هـ/1164م) نجد طبيعة المنتوجات الرائجة لسكان مدينة مرسى الدجاج أين يُحمل التين منها شرائح طوبا ومنشورا إلى سائر الأقطار

وأقاصي المدائن والأمصار (الإدريسي، 2010: 259)، كما حفظ لنا الثروة الحيوانية المعروفة بها مدينة دلس التي تشمل الغنم والبقر وبنسبة كثيرة، حيث تباع "بالأثمان اليسيرة، ويخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق" (الإدريسي، 2010: 259).

كما سلّط الحميري (ت 727هـ/1326م) الضوء على خصائص بعض المدن متتبعا ركيزة منتوجاتها فقال عن مدينة الجزائر: "في جبالها قبائل البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير، وأكثر أموالها المواشي والبقر والغنم، ويتخذون النحل كثيرا، والعسل والسمن في بلدهم كثير ولذلك يتجهز به منها إلى الأقطار المجاورة لها، والمتباعدة عنها" (الحميري، 1984: 163).

وقال عن قسنطينة أن "بها أسواق وتجار، وأهلها مياسير ذوو أحوال وأموال ومعاملات للعرب، وأصحاب حنطة تقيم في مطاميرها مائة سنة لا تقسد والعسل بها والسمن كثير ويتجهز بها إلى سائر البلاد" (الحميري، 1984: 480).

ويخبرنا الوزان (ت 957هـ/1550م) عن الموقع الاستراتيجي لحاضرة ورقلة واستثمارها إياه وعلاقاتهم الممتدة إلى أعماق بلاد إفريقيا جنوب الصحراء وغيرها باعتبارها محطة عبور القوافل والسلع التجارية؛ إذ "الصنّاع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جدا، لأنهم في اتصال مع مملكة أكّز، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لاسيما من قسنطينة وتونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلون بها يأتي به التجار من بلاد السودان" (الحسن الوزان، 1983: 136/2 - 137) (انظر التعليق رقم 2).

فهذه الحركة التجارية التي وقف عندها الجغرافيون بالرصد بتتبعهم للمواد المصدّرة والمنتوجات المستوردة تبين الانفتاح الاقتصادي الذي كان بين الريف والحاضرة، وبين المدن الكبرى جنوبا وشمالا، شرق وغربا، وانعكاساتها على السلطة السياسية من ناحية المداخل، وعلى المجتمع من ناحية التجارة الحرة وخلق التنافس.

الخاتمة:

بالنظر إلى مجمل ما تم استعراضه عن فحوى عرض المصادر الجغرافية، يتبيّن للباحث ما يلي:

- تنوع وثراء المتن الجغرافي بعيدا عن الصورة النمطية الموهمة خلوها من أسس منهجية وما هي إلا معطيات جغرافية وفقط، فتأسيس المدن وانتقاء المجالات، وتنوع الثروات، والأدوار التاريخية، والقيمة المضافة لنشاطاتها وغيرها لخير دليل على ضرورة معرفة منهجية قراءة هذا النوع من المدونة للاستفادة التاريخية منها.
- تميزت منهجية الجغرافيين بدقة التتبع لمميزات المجالات من الناحية الجغرافية، وكذا رصد المعالم العمرانية، والخصائص الإثنوغرافية، وكل هذا الرصد يساهم في إمداد الباحثين بمادة قيمة عن تاريخ حواضر المغرب الأوسط.
- بينت النصوص الجغرافية التطور الذي حصل بمختلف المجالات عبر أمد طويل، وبمجمّل هذه النصوص تشكل البناء التاريخي المتسلسل للمجالات من مختلف المظاهر.

التعليقات:

01. قد حمل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه ما يتنافى مع أخلاق الفاتحين، ومثل هذه الأحكام بحاجة إلى أدلة وقرائن تاريخية، وهي ما نفتقدها في المدونات التاريخية التي تحدثت عن فتح المغرب الأوسط، وقد ناقش الباحث عبد العزيز فيلاي من خلال المصادر التاريخية المدى الجغرافي لحملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح المعين من قبل الخليفة عثمان بن عفان سنة 27هـ/647م -وهو ما يفند رواية الوزان - مؤكدا أن عبد الله بن سعد "لم يفتح إفريقية كاملة، بل حتى العاصمة قرطاج لم يصلها ... فكانت حملته حملة غير مستقرة، استمرت نحو سنة وثلث السنة، ومن برقة انسحب إلى الفسطاط سنة 28هـ/648م ... فانقطع غزو المسلمين إلى هذه الربوع نحو 17 سنة بسبب الفتنة الكبرى". (فيلاي عبد العزيز، 2022: 174 - 175).
02. كان الإدريسي قد أكد هذا حينما اعتبر هذا المجال محطة عبور للقوافل والسلع، في قوله: "وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء" (الإدريسي، 2010: 20). وفي موضع آخر نقل عن مصدر الحنطة لأهل زواغة السودان قائلا: "وربما جلبت الحنطة إليهم من بلاد وارقلان وغيرها" (الإدريسي، 2010: 111).

قائمة المراجع:

- ابن سعيد، علي بن موسى الغرناطي، (2013). الجغرافيا، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، (2008). المقدمة، بيروت: المكتبة العصرية.
- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، (د.ت). تقويم البلدان، بيروت: دار صادر.
- الإدريسي، محمد بن عبد الله الشريف، (2010). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.
- البكري، أبو عبيد، (د.ت). المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- ابن حوقل، أبو القاسم، (1872). المسالك والممالك، ليدن: مطبعة بريل.
- ابن حوقل، أبو القاسم، (1992). صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، (1983). وصف إفريقيا، ط2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (د.ت). كتاب الجغرافية، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2. بيروت: مكتبة لبنان.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، (1977). معجم البلدان، لبنان: دار صادر.
- مؤلف مجهول، (1986). كتاب الاستبصار وعجائب الأمصار، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- فيلالي، عبد العزيز، (2022). الغرب الإسلامي — دراسة تحليلية لأصول السكان وأحداث الفتح الإسلامي -، الجزائر: دار الهدى.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (د.ت). آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر.